مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة

العدد التاسع

1992 م.

مُراجعة كتاب

إسبانيا الإسلامية

(1500 - 1250)(*)

تأليف الدكتور ل. ب هارفي

مراجعة الدكتور أمين توفيق الطيبي

جامعة الفاتح - الجماهيرية العظمى

إن الفترةَ من تاريخ الأندلس الممتدةَ من سقوط إشبيلية في أيدي النصارى سنة 1248 م إلى سقوط غرناطة سنة 1492 م فترةٌ من تاريخ الأندلس يكتنفها كثيرٌ من الغموض، ولم تنل حظَّها من اهتمام الباحثين والمؤرخين الذين انصبَّ جل اهتمامهم على القرون الخمسة الأولى من تاريخ الأندلس ابتداءً من الفتح العربي الإسلامي للبلاد. وقلَّما نجدُ مؤرخاً عربياً أولى الفترةَ المتأخرةَ من تاريخ الأندلس اهتماماً جاداً معمَّقاً، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين، فقد تناولوا الفترة بصورة جانبية مهمَّشة عند تأريخهم لإسبانيا، مركِّزين على الجانب المسيحي. ولذلك، فإن صدورَ كتاب (إسبانيا الإسلامية 1250 - 1500) للأستاذ الدكتور ل. ب. هارفي، في الآونة الأخيرة، يسدُّ فراغاً ويلبِّي حاجةً ملحَّةً للباحثين في تاريخ الأندلس في القرون الثلاثة الأخيرة من الوجود الإسلامي في البلاد.

(*) Islamic Spain 1250 - 1500 L.P. Harvey

صدر الكتابُ عن مطبعة جامعة شيكاغو الأمريكية عام 1990. وهو يضم 339 صفحةً من الحجم المتوسط، ويشتمل على مقدمة من ثلاث صفحات، وعلى خريطتيْن، إحداهما لغرناطة الإسلامية والممالك النصرانية بشبه جزيرة إيبرية، والثانية لمملكة بني نصر بغرناطة. ويُختتم الكتابُ بقائمة مستفيضة للمصادر والمراجع، وفهرس بالأعلام الوارد ذكرُها في الكتاب. والطباعة جيدة، وللكتاب غلاف سميك أخضر اللون.

يشتمل الكتاب على 30 فصلاً هي:

1 ـ البيئة الجغرافية والخلفية التاريخية.

2 ـ قيام دولة بني الأحمر في غرناطة.

3 ـ جيوب إسلامية.

4 ـ وضعُ المدجَّنين.

5 ـ المدجَّنون في قشتالة.

6 ـ أحكام فقهية لمدجَّني قشتالة.

7 ـ المدجَّنون في أراجون.
8 ـ المدجَّنون في بلنسية.
9 ـ المدجَّنون في نبارة.
10 ـ 17 سلاطين بني الأحمر.
18 ـ العقد الأخير من تاريخ مملكة غرناطة (1482 ـ 1491).
19 ـ سقوط غرناطة (1490 ـ 1492).
20 ـ مسلمو إسبانيا مدجَّنون بالكامل (1492 ـ 1500).

إن مؤلفَ الكتاب ل. ب. هارفي كان يشغل منصبَ رئيس دائرة الدراسات الإسبانية بكلية كنجز King's College بجامعة لندن إلى أن اعتزل المنصبَ عام 1983 ـ وهو بعدُ في الرابعة والخمسين من عمره ـ للتفرغ الكامل للبحث والتنقيب في تاريخ المسلمين المدجَّنين والموريسكيين بالأندلس، مهتماً على وجه الخصوص بجمع الوثائق والمستندات التي خلَّفوها، وهي مكتوبة بالأعجمية (Aljamiaha)، أي الإسبانية المكتوبة بحروف عربية.

وكان الأستاذ هارفي قد درسَ العربيةَ والإسبانيةَ بجامعة أكسفورد ببريطانيا في الخمسينات من هذا القرن، فهو لذلك مؤهَّلٌ للبحث المعمَّق في ميدان الدراسات الأندلسية. والأستاذ هارفي يعطف في بحوثه على المدجَّنين والموريسكيينَ ويعمل على إنصافهم عند تأريخه لمعاناتهم وصمودهم في محنتهم.

يقول المؤلف إنه بدأ في جمع مادته للكتاب منذ أواسط الخمسينات ـ أي منذ 35 سنة ـ في وقتٍ اقتصر فيه الاهتمامُ بالدراسات الأندلسية على عدد قليل من الباحثين. أما الآن، فإن الدراساتِ الأندلسيةَ اجتذبتْ اهتمامَ كثير من الباحثين والمعاهد المتخصصة في كافة أرجاء شبه جزيرة إيبرية، وفي شمال إفريقيا وبقية أنحاء الوطن العربي، وفي الأمريكتَين، وفي معظم البلدان الأوروبية، بل وفي اليابان وأستراليا، مما أثرى معلوماتنا عن الأندلس في أواخر القرن العشرين إثراءً كبيراً.

والكتاب دراسةٌ معمَّقةٌ للحياة والحضارة الإسلامية في كافة أرجاء إسبانيا منذ

سقوط إشبيلية عام 1248 ـ وهو حدَثٌ آذن ببداية انحسار الإسلام عن إسبانيا ـ إلى سقوط غرناطة. وقد استعرض المؤلفُ وجهيْن لإسبانيا الإسلامية: وجهاً تمثّله جماعاتُ المدجَّنين المتناثرة والمنعزلة تحت حكم النصارى، ووجهاً ثانياً متمثّلاً بالمعقل الإسلامي المتبقّي، ألا وهو مملكة غرناطة. يقول المؤلف: «إن هذين الوجهين وجهان مختلفان كلَّ الاختلاف للمجتمع الإسلامي في إسبانيا ـ مجتمع يمثّل شعباً مقهوراً مغلوباً على أمره يكافح من أجل المحافظة على هويته الدينية والثقافية، ومجتمع تضمُّه مملكة غرناطة يكافح في وجه هجمة مسيحية متصاعدة».

ويتناول المؤلفُ في الكتاب التجاربَ الاجتماعية والسياسية والدبلوماسية والثقافية لكل من مملكة بني نصر في غرناطة، وجماعات المدجَّنين المبعثرة في أنحاء شبه جزيرة إيبرية. إن كلتا الجماعتين وجدتا سبلاً لتأكيد القيم والمعتقدات الإسلامية: فالمدجَّنون ترجموا القرآن الكريم لفائدة المسلمين الذين أصبحوا مع الزمن يجهلون قراءة اللغة العربية، بعد قرون من العُزْلة في وسطٍ مسيحي، ومملكة غرناطة في أواخر أيامها تتصدَّى لهجمات النصارى. إن الصورةَ التي يرسمها الأستاذ هارفي هي صورة ثقافات تعاني من الحصار، وهو يتوخّى أن يبيّن الكيفيةَ التي عملتْ بها قضايا العقيدة والهويَّة والتهميش والمقاومة على تكوين طابع الفئتين من المسلمين في إسبانيا.

لقد شعر الأندلسيون منذ بداية تاريخهم بالوحدة الدينية والثقافية، وبروح الاعتزاز بتراثهم الثقافي في الأندلس. وقد بقي هذا الشعور بالاعتزاز بهويتهم وقيمهم حتى بعد الفترة التي يغطّيها الكتاب. ففي القرن السادس عشر، حينما أكره مسلمو غرناطة والمدجَّنون على اعتناق المسيحية، فإنهم ظلوا مع ذلك يعتزُّون بديانتهم وثقافتهم، بل إن من نزح منهم عن وطنه ظل يحتفظ بهذا الشعور في موطنه الجديد بشمال افريقيا حيث اعتبروا أنفسهم «أندلسيين».

وكما يقول الأستاذ هارفي، فإن سقوط غرناطة عام 1492 م كان كارثةً حلَّتْ بكافة مسلمي شبه الجزيرة دون استثناء، ذلك أن وجود مملكة غرناطة كان من شأنه أن يرفع من هيبة المدجَّنين في بقية إسبانيا ومن روحهم المعنوية.

وما إن حلَّ عام 1500 م، حتى أُكره المسلمون على اعتناق المسيحية، وأخذ أعداؤهم في تقويض ثقافة المسلمين المميّزة. ومع ذلك، فإن المسلمين من كافة المناطق ظلُّوا يكتمون إسلامهم، وهؤلاء هم المعروفون بالموريسكيين، وموضوعهم جدير بأن تُخصَّصَ له دراسة مستقلة، ويبدو أن الأستاذ هارفي عاقد العزمَ على كتابة هذه الدراسة. إن المسلمين الذين بقُوا في شبه الجزيرة عانَوْا الكثيرَ من ألوان الاضطهاد والقهر على فترات عديدة، ولكنهم مع ذلك كافحوا بإصرارٍ للاحتفاظ بهويتهم، ونقلها لأبنائهم من بعدهم.

ويختتم المؤلفُ مقدمةَ الكتاب قائلاً: «إن هذه الدراسة لا يُقصد من ورائها أن تكون دراسة لإخفاق المدجنين في الأندلس بل أن تكون تاريخاً لشعب اتسمت مقاومته بالشجاعة والإصرار».

إن كتاب (إسبانيا الإسلامية 1250 ـ 1500) ـ بعمقه ووفرة مادته ـ مصدر قيِّمٌ لا للمؤرخ فحسب بل أيضاً لكل من يتوخّى فهمَ الدَّوْر الذي قام به المسلمون في صُنْع العالم الحديث.

الشيخ الخليفي في ذمّة الله

وَدَّعَتْ مدينة طرابلس يوم الأحد الأول من شهر الكانون (ديسمبر) من العام الماضي 1991 أَحَدَ رجالاتها البارزين في مجالات التعليم والإرشاد والفتوى هو الدكتور أحمد محمد الخليفي الذي وافاه الأجل المحتوم إثر نوبة قلبية حادة.

لقد عرفنا الرجل بهمته العالية التي لا تعرف الوهن، وطموحه الذي لا يستسلم للعقبات والمصاعب، كفيفٌ صمم على أن يقهر الزمانة وفقر الأربعينات المدقع، فترك أهله وقريته طلباً للعلم في ظروف التحكم الاستعماري والحروب العالمية والتخلف والفقر. وبات في زوايا طرابلس وغيرها يتضور جوعاً، ويتألّم حاجةً، ويصطك برداً، ولكنه لا يرى لنفسه طريقاً آخر لتحقيق طموحاته العلمية غير ذلك.

دخل الشيخ أحمد الخليفي زاوية ميرزان فحفظ القرآن الكريم وتدرَّج في العلوم الدينية واللغوية في جامعها العامر بتلك التخصصات على أيدي أشهر علماء البلد في ذلك الأوان. ثم دعته الحاجة إلى الجمع بين التدريس والدراسة، وتصدر للفتوى والوعظ، فقضى في هذا السبيل حوالي أربعين عاماً، تخرجت على يديه خلالها أعداد هائلة من الطلاب، ولكنه لم ينس طموحه في مواصلة الدراسة.

تحصل في أوائل الستينات على «العالمية» من الأزهر، وفي أوائل

الثمانينات على «الماجستير» في الفقه الإسلامي من جامعة الفاتح، مع التوصية بطباعة رسالته على نفقة الجامعة. وفي السنة التي توفي فيها تحصل على دكتوراه الدولة في الفقه الإسلامي من جامعة أم درمان في السودان بامتياز، وكأنَّ الله قد لبَّى آخر آماله الدنيوية قبل أن ينقله إلى جواره الأمين.

رحم الله الشيخ أحمد فقد عاش عمره ملتصقاً بالكتاب يقرؤه، وبالناس ينقل إليهم ما يقرأ في أسلوبه السهل المتميز، وجمعِهِ في دروسه بين الفقه والأدب والتاريخ، وقد ترك للمكتبة العربية كتابين مهمين في الفقه الإسلامي هما «عقود الزواج الفاسدة» وتحقيق «مسائل حلولو» وترجم لأساتذته في أحد أعداد مجلة كلية الدعوة الإسلامية. جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. «وإنا لله وإنا إليه راجعون».

بسم الله الرحمن الرحيم

كان اليوم الأول من شهر ديسمبر 1991 ميلادية يوماً كئيباً حالك السواد تردت فيه البلاد رِدَاء الحداد لرحيل فقيه من أكبر فقهائها وعالم من أبرز علمائها هو تلميذي الوفي وأخي الكريم وصديقي الحميم الشيخ الفقيه الأصولي المفسر الدكتور «أحمد محمد الخليفي» وما إن بلغني هذا النبأ، حتى تدفق وجداني ينبض من القريض في هذه الصورة البيانية المتواضعة قياماً بواجب الوفاء وتقديراً لشرف الصحبة وقدسية الزمالة وتعبيراً عن حرقة الأسى ومرارة الفجيعة وهول المأساة وتصويراً لبعض ملامح الراحل الكريم وإلقاء الضوء على معالم سيرته وترجمة عن الانطباعات والتصورات والمفاهيم عن حياة الفقيد واستعراضاً لباقة من صفاته وأخلاقياته الفاضلة.

فإلى الرياض الزهر إلى الروابي الخضر «في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر» أيها الظاعن العزيز وسلام عليك في عليين ومجال النور في عالم الخالدين وهذه هي الصورة الشعرية المعبرة عن تلك المعاني والأحاسيس الفياضة.

سأقول في حُزن وعيني تهملُ ... بات الخليفي من أُناس رُحَّلوا
قد حَلَّ في وادي الفناء وكلنا ... في ذلك الوادي السحيق سننزل
الآن أمسى في ضيافة رَبِّه ... جَلَّ الذي ضيفانَه لايخذل
في العالَم المجهول حَطَّ رحاله ... بجوار مولاه ونعم المنزِل
ومنازِلُ الأبرار دون سواهمو ... فيها النعيم ونجمُها لا يأفُلُ
الحُور والولدان بعضُ مَتاعِها ... والظلُّ ممدودٌ وماءٌ سَلسَلُ
قل للذي عن غَيِّه لا يعدلُ ... وعلى البهارج والزخارف مُقبلُ
تُغريه دنياه فيركض خلفها ... وفروضَهُ من غير عُذرٍ يُهملُ
يُمسي ويُصبح في الضلالة سادراً ... ولقد يُفَاجئُه القضاءُ فيرحل
يا أيها المُنْسَاقُ في غُلَوائِه ... لا يُهمل اللَّهُ ولكنْ يُمهلُ
فاصْحُ من الأحلام عَلَّكَ في غَدٍ ... تُلقي عصاك وللمقابر تُحمَلُ
واصغ لداعي الحق لا داعي الهوى ... إن كنت تسمع ما أقول وتعقل
هذا الخليفي كان أمس بيننا ... واليوم من روضٍ لروضٍ يُنقَل
في جَنَّةِ الفردوس حيث نهارُها ... لا ينقضي وزهورُها لا تَذبُلُ
لله شيخٌ في العلوم مُبَرِّزٌ ... سَامي المدارك باحثٌ ومُحللُ
بِمشاعِل القرآن يُشرِق صدرُه ... ولحبذا الذكرُ الحكيمُ المنزَلُ
في كل معقول ومنقول له ... باعٌ طويل واطلاع مُذهِلُ
فقهٌ وتفسيرٌ وهَدي مُحمد ... وسوى أولئِك مُجمَلٌ ومُفَصَّلُ
إن كان نورُ الشمسِ لم يَبصر به ... فالشيخ في الظلمات هو المِشعَلُ
كان الخليفي من قلائِلَ حققوا ... بعزيمة كالصخر ما قد أَمَّلُوا
فعلى الطبيعةِ أصبحت أحلامُه ... غرساً زكياً بالثمار مُحَمَّلُ
بإرادةٍ مثل الحديد صَلابَةً ... ليست تَلين أو المآرب تَحصُلُ
ورصانة فكرية وثقافةٍ ... عصرية وعلى الكثير يُفَضَّلُ

جيلاً ونصف الجيلَ كان فقيدُنا ... يُزجي العطاء لطالبيه ويَبذُل
خمسين عَاماً دارساً ومُدرساً ... يبني النُّهى ولكل صَادٍ مَنْهَلُ
كان العِصاميَّ الذي عن صبره ... وطموحِه يجري الحديثُ ويُنقَلُ
يأتي إليه الناسُ يستفتونه ... فيفيدهم بالحكم وهو مُدَلَّلُ
كم مُعضِلات قد أزاح غُمُوضَها ... وشفى غَليلَ مُواطن إذ يسأل
أَسَرٌ تَداعت قد أعاد بناءَها ... من بعد ما دَكَّ البِنَاءَ المعْوَلُ
فتماسك البنيانُ بعد تَصدُّعٍ ... وبَرَاعمٌ لولا الطبيب لأُهمِلُوا
قاسى ضروب البؤس في تحصيله ... جلداً صَبُوراً حَازِماً لا يَفشَلُ
حتى القطوفُ ثمارُها قد أينعت ... وانزَاح عَهدٌ بالمتاعب مُثقَلُ
حَسبُ الخليفي من حصادٍ أنَّهُ ... أرقى شهادات المعاهد يَحمِلُ
«العَالِمِيةَ» نَالها بتفوقٍ ... من جامعٍ هو المَنَارُ الأولُ
«الأزهر» الميمون أشهر كعبةٍ ... للعلم عن تاريخه لا تسألوا
ومن هنا «الوسطى» تخطى جسرَها ... وخِتَامُها «الخرطوم» وهي الأشمَلُ
«لا بُدَّ من صنعاء» غَدت قيثارة ... عن عزفها طول المدى لا يغفُل
إن قيل صنعاءُ يَعِزُّ مَنَالُهَا ... فجوابُه إنِّي أقول وأفعَلُ
ولقد أتى صنعاءَ ليلاَه التي ... قد ظَلَّ أعواماً، بها يتغزَّلُ
ما دُرَةُ اليمن السعيد مُرَادُه ... مثل الذي ظَنَّ الكثيرُ وأوَّلُوا
بل هي «دكتورا» تُرَفِّعُهُ إلى ... كُرسيِّ أستاذٍ عليه يُعَوِّلُ
إن التَعقُّل والكياسة والوفا ... من بين باقاتٍ بها يَتَجَملُ
ومآثرٌ مثل النجوم مضيئةٌ ... ومن المعارف ثروةٌ لا تُعقَلُ
وتواضُعٌ لا سيما لشيوخِه ... فبهم جميعاً يَحتفي ويُبَجِّلُ
لا الإدِّعَاءُ ولا التظاهرُ طَبْعُهُ ... مثل الذي يجتر ما قد يجهلُ
لا يَستَبِدُّ ولا يقاطع غيرَه ... أو يستهين بسائِلٍ إذ يسألُ
في أي موضوع يُثارُ أمامه ... ما دام لا يعنيه لا يَتَدَخَّلُ

مُتـرويـاً قـد كـان لا مُتَسَـرِّعَـاً ... يُنبيـك عن ثـقـةٍ ولا يَتَعَجَّـلُ
ما إن تَراهُ على الحـديث مُهيمناً ... إن ضَمَّ أَهلَ العِلمِ يومـاً مَحفِلُ
فـإذا الحضـورُ تبـاينت آراؤُهم ... فمقـالُـه لا ريب هـو الفَيصَـلُ
ولـعـلَّ مَثـواهُ يُحَـوَّلُ روضَـةً ... بـالنور تشرق بالمـلائِـك تَحفِلُ
ويُبـوأُ الشيـخُ القصـور مُخلداً ... أَبـداً وفي حُللِ السعـادة يَـرفُـلُ
هـذا رجـاءٌ وابتهـالٌ صـادقٌ ... يـا أحمـدُ حُسنُ المـآبِ مُؤَمَّـلُ
أَورثتَ هـذا الجيلَ عِلمـاً نـافعـاً ... والعِلمُ جسـرٌ للجِنَـانِ مُـوَصِّـلُ
الـعـلمُ لـلعـلمـاءِ مَـنـجـاةٌ إذا ... عَمِلوا به والعكسُ إن لم يعملوا
واللَّهُ غَفَّـارُ الـذنـوب جميعِهـا ... حتى إذا انحـرفَ العبـادُ وأَهمَلوا
من يـأتِه يحـوي الفـراغَ جِـرَابُـه ... من حوضِ أَحمدَ قد يَعُلُّ ويَنهَلُ
وأَبـو البنـات يَقينَـهُ حَـرَّ لَـظًى ... وفقـاً لِمـا قـال النبيُّ المُـرسَـلُ
لَكن علينـا الالـتـزامُ بـدينِنَـا ... والخـوفُ من رَبٍّ عليـه سَنُقْبِـلُ
ومن البليـةِ أَن يـواجِـه مُسلمٌ ... ربَّ البـرية في الخـطايا مُـوغِـلُ
من رَحمـةِ اللَّهِ وواسِـعِ فَضلِهِ ... يَسقِـي ضريحَك وابِـلٌ مُسْتَرسِـلُ
حتى يقـوم النـاسُ من أَجـداثِهم ... فَمُحمـدٌ إذ ذَاكَ هـو المـوئـلُ
وهنـاك رَحْمَـنٌ رَحيـمٌ بَـابُـه ... في وَجـه عبـدٍ مُؤمنٍ لا يُقفَـلُ
آل الخليفي لا تقـولـوا ويحَنَـا ... قـد غَـابَ رَاعينَـا وَجَفَّ الجـدوَلُ
فـالله هـو ولـيُّـكُـم ووَلِـيـه ... وهـو الذي بعـد الكفيل سَيكفُـلُ
يأسو جراحَكمو ويرأب صدعكم ... وكبيـركُم وصغيـركُم لا يُغفِـلُ
ويحُـوطُكم من فَضلِهِ بـرعـايةٍ ... سُبحـانَـه عن نَملَةٍ لا يَغفَـلُ
إن كان أَحجَم مُزنكُم عن صَوبِه ... فاستمطروا مُـزْنَ الذي لا يَبخَـلُ
سيُبَـدِّل الـلَّهُ الأسى بـنَقِيضـهِ ... لا غيـره مـا في القلوب يُبَـدِّلُ
فـإليكمو يُسـدِي العـطاءَ ويُجزِلُ ... وعليكمـو سـتراً جميـلاً يُسـدِلُ